جامعة الكوفة / كلية الآداب
قسم اللغة العربية

دلالة الجرس والايقاع في المفردة القرآنية

أ. م . د . حافظ كوزي عبد العالي
م . م . خالد توفيق مزعل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير العباد اج معين محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، واصحابه المنتجبين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

وبعد :

فالقرآن كلام ما هو من كلام الانس ، ولا من كلام الجن ، وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق ، وانه ليعلو وما يعلى عليه .

هذا ما اقر به خصوم القرآن حال سماعهم آياته تتلى على لسان الصادق الامين ، فأدركوا حينها انه نظام من التأليف لم يطرق اسماعهم من قبل ، ولم يعهدوا له مثيلا ، فما كان منهم الا ان تولوا شطر الاوهام يلتمسون فيها سبيلا للخلاص مما اقروا به ، حتى وجدوه ماثلا في السحر الذي يفرق بين المرء وزوجه في مزاعمهم ، فتوهموا فيه حالا مماثلة لما وقع في القرآن من تفرقة بين الحق والباطل على اساس من الكفر والايمان . ومن ثم كان لذلك التفريق اثره في تقويض الظلم الاجتماعي القار في الجزيرة العربية وسواها منذ آماد بعيدة ، واقامة نظام آخر يسود فيه العدل والمساواة جميع ارجاء المعمورة . وكان السبيل الى ذلك ان بُعث فيهم رسول من انفسهم يتلو عليهم قرآنا عربيا مبينا ، فكان كلاما من سنخ ما يعرفون ، بيد انه نظام من التأليف لم يعهدوه في نظمهم من قبل ولا في نثرهم ، فأدركوا حينها انه جنس من البيان لا يضاهيه بيان . فأنشقت عصا الطاعة – حينذاك – على كبراء قريش وساداتها ، وصاروا هم وذووهم شيعا متفرقة بين مؤمن وكافر ، حتى انهم كادوا ان يؤمنوا مع من آمن لولا خطل الرأي الذي حال بينهم وبين الايمان .

ومن هنا كان البيان الراقي الذي حازت عليه لغة القرآن هو العامل الاساس وراء هذا التغيير ، حتى غدا اعجازا لغويا قصر عنه كل من جاراه ، او حاول اللحاق به .

وقد تمثل هذا البيان – في وجه من وجوهه – في التكثيف الدلالي الذي انضوت عليه جملة من الالفاظ القرآنية ، فكان مبناها موحيا بمعناها ، مفصحا عنه في السياق الذي انتظمت فيه . ولعل العلة في ذلك تكمن في طبيعة الاصوات التي تشكلت منها تلك المفردات ، فهي تنماز بخصوصية في جرسها الصوتي ، وترددها النغمي على مستوى الدلالتين : الصوتية والصرفية ، فكان ذلك مدعاة الى توظيفها في سياقها من دون مرادفاتها من الالفاظ الأُخر ، استنادا الى م ا تسبغه على النص من ظلال موحية من شأنها ان تسهم في الكشف عن مكنونه الدلالي .

وفي هذا البحث سنحاول جهدنا الالمام بما ورد من هذه الالفاظ في اساليب كان الباري – جل وعلا – قد وظفها في القرآن لتكون سبيل الدعوة الاسلامية الى قلوب الناس وعقولهم ، ومنها : اسلوب الحوار ، واسلوب المحاجّة ، واسلوب ضرب الامثال ، وغيرها ، معتمدين في ذلك التدرج مع الكثافة العددية لهذه الالفاظ ، بحسب ورودها في تلك الاساليب .

ففي سياق المثل القرآني وردت مجموعة من الألفاظ ذات الجرس الصوتي المميز مثل لفظة (حُمِّلوا) الواردة في قوله تعالى : (**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**) [i] .

يقرن النص القرآني في هذا المثل حَمَلَة التوراة من اليهود الذين أنكروا صفة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) تلك التي بشرت بها التوراة – بحال الحمار البليد الذي يحمل أثقالا من الكتب ، وهو لا يفقه ما فيها من العلم ، ويقاد إلى حيث قُدِّر له ، ليس له إلا الكد والتعب ، وغايته حمل الأثقال وإشباع البطن ، فجاء هذا التعبير الفني متوائما والحال التي يرمي القرآن الكريم إيصالها إلى المتلقي ، فهم أشبه بهذا المخلوق [ii] . ومن أجل ذلك جاء النص القرآني بلفظة (حُمِّلوا) لتكون المحور الجامع بين الحمار والمنكرين من اليهود ، انطلاقا مما يقدمه التآزر الوظيفي بين صيغتها المبنية للمجهول والانسجام الصوتي في حروفها من جرس يوحي بمعنى المماثلة بين الطرفين . ((فصيغة (حُمِّلوا) المبنية للمجهول ، المضمومة الحاء متلوة بالميم المكسورة المشددة ونحن ننطقها نحس جرسا شديدا ونغما ث قيلا يشعران بأنهم قد حُمِّلوا التوراة عن ثقل في أرواحهم وأنفسهم ، وان هذا الثقل متأت من أن الكتاب السماوي ينص على أن محمدا - صلى الله عليه وآله وسلم - خاتم الأنبياء ، وفي هذا – من وجهة نظرهم – اغتصاب وهدر لمكانتهم الدينية التي يبغون من ورائها تحقيق مآرب ش خصية)) [iii] . وبهذا يكون الجرس والإيقاع الذي تحمله لفظة (حُمِّلوا) قد أسهم إسهاما فاعلا في ايضاح المعنى الذي ينضوي عليه المثل ، اذ دل على ضعف العقلية اليهودية وافتقارها إلى فهم ما يدور حولها بسبب غيّها وعنادها .

ومن الألفاظ ذات الجرس الموسيقي لفظة (متشاكسون) الواردة في قوله جلّ وعلا : (**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**) [iv] .

يصور المثل القرآني مشهدا من مشاهد المفارقة التامة بين صورتين من صور المجتمع الإنساني القائم على ثنائية السيادة والعبودية في العلاقات الرابطة بين أفراده ، وهذا التصوير ما هو إلا انعكاس لواقع الكفر والإيمان الذي يعيشه المجتمع البشري في المراحل الأولى للدعوة الإسلامية ، إذ اتخذ النص القرآني من العبد الذي يتنازعه أسياد كثيرون رمزا لحال المشرك الذي تتنازعه أهواء الضلال تجاه مجموعة من الأصنام والأوثان وهو لا يدري أيها يرضي

وأيها يترك . ثم اتخذ النص من العبد المملوك لسيد واحد – يأتمر بأمره ويسعى إلى إرضائه – رمزا للإنسان المؤمن بالله تعالى وحده من دون سواه .

ومن أجل إيضاح المفارقة بين الحالين عبّر النص القرآني عن التنازع بين السادة المشتركين في عبد واحد بلفظة (متشاكسون) ، وهذه اللفظة تعني في اللغة : المخاصمة والعناد والجدل في أخذ ورد [v] ، وكان بالإمكان أن يستعمل القرآن لفظة أخرى تعبر عن هذا المعني مثل لفظة (متجادلون) أو (متخاصمون) بيد أنه ((لم يستعملها حفاظا على الدلالة الصوتية التي أعطت معنى النزاع المستمر ، والجدل القائم ، وقد جُمعت في هذه الكلمة حروف التفشي والصفير في الشين والسين تعاقبا تتخللها الكاف في وسط الحلق ، والواو والنون للمد والترنم ، والتأثر بالحالة ، فأعطت هذه الحروف مجتمعة نغما موسيقيا خاصا حمَّلها أكثر من معنى الخصومة والجدل والنقاش بما أكسبها أزيزا في الأذن ، يبلغ به السامع أن الخصام ذو خصوصية بلغت درجة الفورة والعنف والفزع من جهة ، كما أحيط السمع بجرس مهموس معين ذي نبرات تؤثر في الحس والوجدان من جهة أخرى)) [vi] فكان الجرس الصوتي الذي تحمله اللفظة سببا من أسباب اختيار النص القرآني لها من بين مرادفاتها ، إذ أسهمت في بيان البعد بين الحالين الممثل لهما وبيان حقيقة كل منهما .

ومن الألفاظ ما يعبر بجرسه عن الشدة والفزع انسجاما وإيقاع الحدث الوارد في السياق ، مثل لفظة (صيِّب) في قوله تعالى : (**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ**) [vii] .

يصف هذا المثل أحوال المنافقين وما هم عليه من المخاوف في ظل ما أحاط بهم من جوٍّ عاصف ، لذا جاء بلفظة (صيِّب) لما في جرسها الصوتي من تناسب مع تلك الأجواء المهولة . فالصيِّب يعني : المطر والسحاب [viii] . غير أن هذا السحاب والمطر رافق حركته ونزوله أصوات واضطرابات ناتجة عما يصاحبه من رعد وبرق ، فصور ذلك مشهدا عجيبا حافلا بالحركة والاضطراب ، والهول والرعب ، وفي هذا تصوير للحال النفسية التي هيمنت على المنافقين [ix] . وقد زاد الموقف شحنة من التهويل إطلاق لفظة (صيِّب) بدلا عن السحاب والمطر ؛ لما فيها ((من المبالغات من جهة المادة الأ ولى التي هي الصاد المستعلية ، والياء المشددة ، والباء الشديدة . ومادة الثانية ، أعني الصوب المنبئ عن شدة الإنسكاب ، ومن جهة بنائه الدال على الثبات)) [x] فكان إيراد هذه اللفظة بدلا عن السحاب والمطر أكثر ملاءمة

للمعنى المعبر عنه والجو الترهيبي الذي يسود ال نص ، وأعمق أثرا في النفوس الضالة عن سبيل الهداية .

ومن الألفاظ الأخرى المعبرة بجرسها عن الشدة والخوف لفظة (زلزلوا) في قوله تعالى : (**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ**) [xi] .

يتحدد المسار الإيقاعي للفظة (زلزلوا) في كونها لفظة ذات نسيج مقطعي متماثل الأصوات ، وقد نتج هذا التماثل عن التكرار لصوتي الزاي واللام ، مما منحها طاقة من التردد النغمي أسهم في محاكاة معناها . فهي تعني : الاهتزاز والاضطراب في الأرض [xii] ، غير أنها استعيرت في سياق المثل لتعبر عن الإحساس البشري بالشدة والخوف ؛ لأنها من الحالات النفسية المرافقة للاهتزاز والاضطراب .

وإذا علمنا أن الزاي صوت مجهور ذو صفير استمراري [xiii] ، فإن التقاءه باللام المجهورة [xiv] . يولد نغما موسيقيا شديدا من شأنه الإيحاء بالحال النفسية المضطربة ، فإذا ما تكرر هذا المقطع الصوتي فإن الإيحاء فيه يتضاعف في الدلالة على شدة الانزعاج والاضطراب التي كان عليها الرسل ومن آمن معهم من جرّاء ما أصابهم من الشدائد والمحن ، وما جرى عليهم من تقتيل وتشريد . ومن هنا حقق حضور لفظة (زلزلوا) في سياق المثل منحىً إيقاعياً معبراً عن الوضع النفسي المضطرب الذي كان يعيش فيه الرسل والمؤمنون بإزاء تبليغهم الرسالات السماوية . وفي هذا بيان لعظم المهمة التي تحملوها في سبيل تبليغ الرسالات الإلهية ، ومن ثم هو دعوة إلى الصبر والتحمل في تبليغ الدعوة الإسلامية إذا ما جوبه الداعي والمؤمنون بالصد من الآخرين .

أما في سياق الحوار فقد وردت مجموعة من الألفاظ انمازت بجرسها الخاص ، مثل لفظة (إدّاركوا) في قوله تعالى : (**قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ**) [xv] .

تضمنت هذه الآيات إخبارا عن مصير الكافرين في الآخرة ، وقد وردت لفظة (إدّاركوا) في سياق النص لتعطي مفهوما أوضح وأدق في التعبير عن حال الكافرين وهم يُزَجَّون في النار ، إذ عبرت بجرسها عن معنى التلاحق والتراكم في النار [xvi] . فالأصل في

صيغة (ادّاركوا) هو تداركوا ، فأدغمت التاء في الدال بعد قلبها دالا وتسكينها ثم المجيء بهمزة الوصل [xvii] ، فأحدث ذلك نغما صوتيا موحيا بالمعنى ، إذ إن صوت الدال يناظر صوت التاء من حيث المخرج والصفة الانفجارية ، فكلاهما صوت أسناني لثوي وكلاهما ذو وقفة انفجارية [xviii] ، والفارق بينهما هو الجهر في الأول والهمس في الثاني [xix] ، فأدى الإدغام بينهما إلى مضاعفة الجهر في صوت الدال نتيجة لتحوله إلى صوت مضعف ثم انفتاحه على ألف المد مما جعله المهيمن الأوضح في المسار الإيقاعي لأصوات اللفظة . ومن هنا كان الإدغام هو المرتكز الصوتي الأساس الذي أكسب اللفظة جرسا وإيقاعا منحها صفة التفرد ، بالنظر لما يحدثه من ثقل على اللسان يشعر بثقل ما يلاقيه الكافرون من عذاب ، وهذا ادعى في إيصال دعوة الوعظ التي يحملها الحوار إلى ذهن المتلقي .

ومن الألفاظ ذات الجرس الصوتي المميز لفظة (قمطريرا) الواردة في سياق الحوار الداخلي الذي تضمنته قصة الأبرار ، يقول تعالى : (**إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً * إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً**) [xx] .

لما كانت الغاية من هذا الحوار هي لفت انتباه السامع إلى ضرورة أن يكون العمل خالصا لوجه الله تعالى [xxi] ، فقد علل النص القرآني هذه الضرورة بمخافة الله تعالى والسعي إلى تحصيل مرضاته ، ومن أجل ذلك أورد في سياق النص ألفاظا تعضد هذا المعنى وتعلله ومنها لفظة (قمطريرا) التي وقعت صفة ثانية ليوم القيامة بعد لفظة (عبوسا) ، فكان من شأنها زيادة التعريف بذلك اليوم بعدما جيء به نكرة ، إذ دلت بثقل أصواتها على ثقل ذلك اليوم وطوله [xxii] . فلفظة (قمطريرا) تعني : الشديد [xxiii] ، ولعل هذا المعنى ظاهر في نطقها ، فهي ذات أصوات تتماز بالفخامة والشدة . فالقاف حرف قلقلة ذو صوت مهموس انفجاري [xxiv] يتناسب وفخامة الطاء المهموسة الانفجارية [xxv] ، ولاسيما أن الميم المجهورة واقعة بينهما ساكنة ، فساعد ذلك في زيادة وضوحهما في السمع ، ثم تلا ذلك سلسلة من الجهر المتواصل بين الراء المتكررة الجهر وانفتاحها على صوتي المد المجهورين (الياء والألف) فأسهم ذلك في إحداث تنوع إيقاعي متأرجح بين الانخفاض والارتفاع ، ولعله نتج عن طول النسيج المقطعي وصفة التوسط في صوت الراء بين الرخاوة والشدة [xxvi] ، فكان لهذا النسق الصوتي الذي تكونت منه اللفظة أثر كبير في إيجاد ضرب من المسار الإيقاعي ترك أثره على النص جميعه ، وأسهم في بيان العلة من العمل الصالح في الحياة الدنيا .

ومن الألفاظ ما يدل على شدة العذاب بجرسه الصوتي الصارم مثل لفظة (رجس) الواردة في حوار هود (عليه السلام) مع قومه في قوله تعالى : (**قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ**

رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) [xxvii] .

تضمّن هذا الحوار تهديدا ووعيدا على لسان هود (عليه السلام) بعدما يئس من استجابة قومه إلى دعوة الحق .

وقد جاءت لفظة (رجس) في سياق النص دالة بجرسها على شدة العذاب الإلهي الذي وعدهم به هود (عليه السلام) ، فقد ذهب غير مفسر إلى أن لفظة (رجس) في هذا النص يراد بها العذاب [xxviii] ، غير أن بعضهم الآخر ذكر لها معاني أخر كالدنس والقذارة وفساد النفس [xxix] . وليس هناك تعارض بين هذه المعاني ومعنى العذاب ، فقد تكون هذه المعاني سببا في وقوع العذاب واستحقاقه على من اتصف بها .

والرجس لفظ يقال للصوت الشديد نحو : بعير رجاس شديد الصوت ، وغمام راجس شديد الرعد [xxx] ، ومن هنا دلت اللفظة في سياق النص على الشدة ، فضلا عن اشتمال أصواتها على جرس شديد الوقع فكان في ذلك مؤازرة لمعناها ، فالراء صوت مجهور ذو تكرار استمراري يتراوح بين الشدة والرخاوة غير أن اجتماعه مع شدة الجهر في الجيم ذات الوقفة الاحتكاكية [xxxi] ثم الصفير المستمر في السين المهموسة [xxxii] أدى إلى إحداث ضرب من النغم الصوتي ينماز بشدة وقعه على الأسماع ، وفي هذا تناسب مع التهديد والوعيد الذي انضوى عليه النص .

وفي سياق التذكير وردت بعض الألفاظ ذات الجرس الصوتي المميز ، ومنها لفظة (صرصر) الواردة في قوله جلَّ وعلا : **(كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ)** [xxxiii] .

تتجلى أهمية الجانب الصوتي للفظة (صرصر) في إفصاحها عن شدة العذاب الذي أوقعه تعالى بعاد ، فالريح الصرصر ((هي الرياح الباردة العنيفة العاتية ، ترتبط دلالتها بدلالة الهلاك والشدة)) [xxxiv] وهذه الدلالة واضحة المعالم في النغم الصادر عن التواشج الصوتي في بنية اللفظة ، من حيث التقاء ((صوت الراء الذي يفيد التكرار بصوت الصاد الصفيري قد منح المفردة بعدا دلاليا مستمدا من بعدها الصوتي الذي يوحي باصطكاك الأسنان نتيجة البرد الشديد ، فضلا عما في هذه اللفظة من تكرار مقطعي ، فتكرار المقطع (صر) مرتين ذو دلالة واضحة على محاكاتها لحدث البرد القارس)) [xxxv] وبهذا تكون اللفظة قد أدت وظيفتها على مستوى الإيحاء الدلالي بما تحمله من نغم منبعث من التآلف بين أصواتها ، فدلت على شدة ذلك اليوم وما فيه من عذاب مهول يدعو إلى التأمل وإطالة النظر في عاقبة هؤلاء القوم وسر عقابهم

. ومن الجميل في هذا السياق أن نلمح التلاؤم القائم بين صوت الصاد في صفة الريح (صرصرا) وبين صوت السين في صفة يوم العذاب نفسه (نحس) ، فكلاهما صوت صفيري ، وهما احتكاكيان مهموسان ، يزاد على هذا إنهما أسنانيان لثويان ، فجمعت بينهما أكثر من صفة صوتية مما اوجد تداعيا دلاليا بين نحاسة اليوم وصرصرة الريح ، فالصرصرة دعت إلى أن يكون اليوم نحسا ، وبما أن الصاد المفخمة أقوى في صفيرها من السين فقد قدمها النص القرآني مراعاة لشدة الصوت أولا ، وللترتيب المنطقي للوقائع ثانيا، فالصرصرة وقعت أولا وهي شدة العذاب ، ثم غدا اليوم نحسا بعد ذلك لوقوع الصرصرة فيه التي دلت بأصواتها المكررة على طول العذاب واستمراره .

وقد استعمل النص القرآني لفظة (قصمنا) في سياق التذكير لما في أصواتها من شدة توحي بالإهلاك الشديد الذي أوقعه تعالى بالأمم الكافرة ، يقول تعالى : (**وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ**) [xxxvi] .

إن الأصل في القصم هو الفصم الذي يبين تلاؤم الأجزاء ، وهو خلاف الفصم الذي لا يبين تلاؤمها بالكلية [xxxvii] . وقد سيق في الآية ليعطي معنى الإهلاك الشديد ؛ لما فيه من دلالة على شدة السخط وقوة الغضب [xxxviii] . ولم يكن النسيج الصوتي للفظة بمعزل عن الإيحاء بدلالتها ، فقد جاءت أصواتها متآزرة بعضها مع بعض في سياق من الانسجام الصوتي الذي أفضى إلى ضرب من الإيقاع حمل بين طياته طابعا من الشدة ، وقد تمثل ذلك في اجتماع حرف القلقلة القاف الانفجارية بما فيها من شدة تقرع السمع مع الصفير الاستمراري المنبعث من الصاد المفخمة [xxxix] ، ثم الجهر المزدوج الصادر عن الصوتين الأنفيين (الميم والنون) وامتداد الأخير مع الألف الرخو المجهور [xl] بما فيه من استطالة وامتداد في السمع ، فأفضى ذلك إلى إيجاد نغم صوتي ذي أبعاد طولية متموجة امتد صداها في خط من التوازي مع المعنى الذي تحمله اللفظة ، فكان جرسها تصويرا للمعنى الذي تحمله .

وفي سياق المحاجّة وردت بعض الألفاظ انمازت بما تحمله من جرس وإيقاع مثل لفظة (أغطش) في قوله تعالى : (**أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها * رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها * وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها**) [xli] .

تشترك لفظتا (أغطش وأخرج) الواردتان في سياق النص في علاقة من التقابل المعنوي المفصح عن السعة والشمولية في المقدرة الإلهية من حي ث إحاطتها بالوجود والتحكم في مساره الحركي .

ولو تقصينا البحث عن العلة التي تقف وراء هذا التقابل لوجدناها ماثلة في ما تحمله اللفظتان من شدة في الجرس والمعنى [xlii] ، تتناسب وطبيعة الموضوع الوارد في سياق النص ، ومن أجل ذلك استعمل النص القرآني لفظة (أغطش) بدلا من أظلم على الرغم من التماثل المعنوي بينهما ؛ لأن لفظة (أغطش) ذات بنية صوتية تنماز بأصواتها الشديدة الدالة على القوة والفخامة ، فالغين صوت احتكاكي ذو تفخيم جزئي ينماز بجهره الاستمراري [xliii] ، وقد أدى تجاوره مع الطاء المفخمة ذات الصوت الانفجاري الشديد [xliv] إلى توليد ضرب من النغم الصوتي المتصاعد في الشدة والفخامة ، وفي هذا تناسب والمعنى الذي تحمله اللفظة ، ومن ثم هو تناسب والموضوع الذي يعالجه النص . ثم تلا ذلك صوت الشين ذو الهمس الاستمراري [xlv] ، فأضاف زيادة على النغم الصادر عن الغين والطاء .

وبهذا يكون التآزر الصوتي في لفظة (أغطش) قد أحدث نغما وإيقاعا أسهم في الكشف عن مكنونها الدلالي وناسب السياق الواردة فيه من حيث الشدة التي تتناسب وعظم المقدرة الإلهية في عملية إبداع الكون وتقدير حركته .

ومن الألفاظ التي جاءت في سياق المحاجّة وانمازت بجرسها الصوتي لفظة (يكلؤكم) الواردة في قوله عزَّ وجلَّ : (**قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ**) [xlvi] .

نواجه في هذه الآية ضربا من المحاجّة التلقينية ، إذ أمر تعالى نبيه محمد اً (صلى الله عليه وآله وسلم) بمحاجة المعرضين عن الدعوة الإسلامية بنعمة الأمن والحفظ التي تحفهم بها الرعاية الإلهية في منامهم بالليل وفي حال تصرفهم بأمورهم في النهار [xlvii] ، فمثلت الكلاءة التي تعني ((حفظ الشيء وتبقيته)) [xlviii] الأساس الذي انطلقت منه المحاجّة . ولما كان الاستفهام في عبارة (من يكلؤكم) يراد به الإنكار والتقريع لكفار قريش ومن اتخذ الأصنام والأوثان آلهة من دون الله [xlix] ، فقد جاءت لفظة (يكلؤكم) متوائمة بجرسها مع طبيعة الإنكار والتقريع الذي يحمله الاستفهام ؛ وذلك من خلال الوقفات الانفجارية المتتابعة التي أحدثها تكر ار صوت (الكاف) بالنظر لما يحدثه من ثقل على اللسان يوحي بشدة الإنكار والتقريع ، إذ أدى تكرار الكاف في موضعين وتوسط اللام المرققة بينهما إلى إيجاد ضرب من التردد النغمي امتد تأثيره على الأصوات الأخرى وأصبح المهيمن الأوضح فيها ، فكان إيراد هذه اللفظة بعد الاستفهام ادعى في مضاعفة الإنكار وزيادة التقريع لكفار قريش .

الهوامش

([i]) الجمعة : ٥ .

([ii]) ينظر : الجمان في تشبيهات القرآن : ٣٤١ ، والكشاف : ٥٣١/٤ .

([iii]) صفات بني إسرائيل في القرآن الكريم : ١٤٧ .

([iv]) الزمر : ٢٩ .

([v]) ينظر : القاموس المحيط : ٧١١/١ ، والمعجم الوسيط : ٤٩٠/١ .

([vi]) الصوت اللغوي في القرآن : ١٦٧ .

([vii]) البقرة : ١٩ .

([viii]) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٤٩٥ .

([ix]) ينظر : في ظلال القرآن : ٤٦/١ .

([x]) إرشاد العقل السليم : ٥٢/٨-٥٣ .

([xi]) البقرة : ٢١٤ .

([xii]) ينظر : غريب القرآن : ٥٤/١ ، ومفردات ألفاظ القرآن : ٣٨٢ .

([xiii]) ينظر : دراسة الصوت اللغوي : ٣١٦ .

([xiv]) ينظر : م.ن : ٣٢٤ .

([xv]) الأعراف : ٣٨ .

([xvi]) ينظر : التفسير الكبير : ٦١/١٤ .

([xvii]) ينظر : روح المعاني : ١١٦/٨ ، والبحر المحيط : ٢٩٨/٤ .

([xviii]) ينظر : علم الأصوات : ٢٥٠ .

([xix]) ينظر : دراسة الصوت اللغوي : ٣١٦ .

([xx]) الإنسان :٩-١٠ .

([xxi]) ينظر : الإسلام والفن : ١٢٤ .

([xxii]) ينظر : المشاهد في القرآن الكريم : ٤٨٤ .

([xxiii]) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٦٨٤ .

([xxiv]) ينظر : علم الأصوات : ٢٧٦ .

([xxv]) ينظر : م.ن : ٢٥٠ .

([xxvi]) ينظر : م.ن : ٣٤٦ .

([xxvii]) الأعراف : ٧١ .

([xxviii]) ينظر : الكشاف : ١١٢/٢ ، والبحر المحيط : ٣٢٩/٤ ، وإرشاد العقل السليم : ٢٣٩/٣ ، وأنوار التنزيل : ٣٣/٣ .

([xxix]) ينظر : التفسير الكبير : ١٣٠/١ ، والمحرر الوجيز : ٤٢٠/٢ .

([xxx]) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٣٤٢ .

([xxxi]) ينظر : علم الأصوات : ٣١١ .

([xxxii]) ينظر : دراسة الصوت اللغوي : ٣١٦ .

([xxxiii]) القمر : ١٨-١٩ .

([xxxiv]) ملامح أسلوبية في سورة القمر : خليل خلف بشير : ١٠ . (بحث)

([xxxv]) مستويات النظم في التركيب القرآني : عبد الواحد زيادة : رسالة دكتوراه : ٥٢ .

([xxxvi]) الأنبياء : ١١ .

([xxxvii]) ينظر : أضواء البيان : ١٣٨/٤ .

([xxxviii]) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٥٨/٦ .

([xxxix]) ينظر : دراسة الصوت اللغوي : ٣١٦ .

([xl]) ينظر : م.ن : ٣٢٤ .

([xli]) النازعات : ٢٧-٢٩ .

([xlii]) ينظر : المشاهد في القرآن الكريم : ٤٨٣ .

([xliii]) ينظر : دراسة الصوت اللغوي : ٣١٨ ، ٣٢٥ .

([xliv]) ينظر : علم الأصوات : ٢٤٧ ، ودراسة الصوت اللغوي : ٣١٦ .

([xlv]) ينظر : دراسة الصوت اللغوي : ٣٢٢ .

([xlvi]) الأنبياء : ٤٢ .

([xlvii]) ينظر : أضواء البيان : ١٥٣/٤ .

([xlviii]) مفردات ألفاظ القرآن : ٧٢٥ .

([xlix]) ينظر : أضواء البيان : ١٥٦/٤ .

الخاتمة

اما النتائج التي اسفرت عن هذه الدراسة فلنا ان نجملها بالآتي :

إنّ النص القرآني آثر استعمال بعض الألفاظ من دو ن مرادفاتها في أساليب الدعوة القرآنية تحقيقا لغايات معينة ماكان لها أن تتحقق من دون هذه الألفاظ ؛ لما تنماز به من خصوصية نابعة من التآزر بين أصواتها على توليد ضرب من الإيقاع الصوتي يسري أثره في النص ويسهم في الإفصاح عن الأفكار الدَعَويَّة التي يحملها بطريقة تتناسب والمستوى المعرفي لدى المتلقي من جهة ، وتعمل على إثارة النزعة الوجدانية لديه من جهة أخرى .

ومن اللافت للنظر ان بعض الالفاظ وظفت في سياقات كان لعناصر الطبيعة وظواهرها الاثر الفاعل في بناء سيرورة الحدث فيها . ولعل السبب في ذلك يكمن في ان الله تعالى اراد من ذلك مخاطبة العقل البشري بما يجري حوله من ظواهر الوجود المرئي التي تسير في تماس مباشر مع مدركاته الحسية ، كما وجدناه ماثلا في صورة الحمار الذي يحمل اسفارا ، وكما في صورة الصيّب النازل من السماء ، وكما في صورة الريح العاتية ، مع بيان الخصوصية التي تستقل بها كل صورة من هذه الصور . ولما كان الامر كذلك ساق النص المقدس ما يلائمها من الفاظ تنماز بوقعها الصوتي المخصوص حتى تكوّن مع مجاوراتها بنية من شأنها ان تصور الحدث على أتم وجه .

من ناحية أخرى لم يكن التكثيف الدلالي الذي انضوت عليه تلك الالفاظ متأتيا من بنيتها الصوتية فحسب ، بل كان لمبناها الصرفي اثر فاعل في مضاعفة الايحاء المنضوي تحتها ، ولعل هذا يبدو واضحا في تكرار المقطع الذي انبنت عليه لفظة (زلزلوا) وامتداد النسيج المقطعي في لفظة (قمطريرا) .

فضلا عما تقدم فان الجانب الاجتماعي لم يكن بمنأى عن دواعي اختيار بعض الالفاظ وايثارها على مرادفاتها ، وقد تمثل ذلك في ايثار لفظة (متشاكسون) على سواها في المثل الذي ضربه تعالى بيانا لحال العبد الذي يتنازعه شركاء متشاكسون . فما من شك في ان لتلك الصورة صداها في نفس العربي الذي يعيش حالا من الصراع المستمر بين السي د والمسود في مجتمعه . فكان استعمال تلك اللفظة افضل من سواها في بيان مستوى الخصوصية في ذلك الصراع ، وأبعد شأوا في الافصاح عن الصورة المرموز لها .